

الاستشهاد في خطبة الجمعة بين الوظيفة الدينية والحجاجية

دراسة نماذج من خطب الجمعة: مسجد سلمان الفارسي دائرة مهدية ولاية تيارت.

The illustration in Friday's sermon of the religious function to the argumentative dimension "Study of examples of Friday sermons-Salman Al Farissi Mosque, Mahdia-Wilaya commune of Tiaret

د. مسعودة مرسل

المركز الجامعي بتيسمسيلت (الجزائر)

messa.morsli@yahoo.com

تاريخ النشر: 2018/09/01

تاريخ القبول: 2018/04/01

تاريخ الإرسال: 2018/01/26

الملخص:

يؤدي الخطاب المسجدي عامة وخطبة الجمعة خاصة دورا فاعلا في تربية المجتمع وتقويم سلوك الأفراد، وذلك باعتماد الخطيب على مجموعة من الآليات الاستراتيجية التي تؤدي وظيفة إقناعية، وعلى رأسها توظيف الشواهد باختلاف أنواعها، والتي تؤدي وظيفة حجاجية دون الخروج عن الوظيفة الدينية.

الكلمات المفتاحية: الخطابة؛ خطبة الجمعة؛ الإقناع؛ سلطة الشاهد؛ الحجاج.

Summary :

The preaching of the mosque in general and that of Friday in particular plays an effective role in the education of the society and the correction of the behavior of the individuals, and this through a certain number of strategic elements which the preacher uses (l'Imam) and who have a persuasive purpose through various illustrations which in turn have a function of argumentation without this sort of religious circle.

Key-words: Friday's preaching ;persuasion ; the authority of illustration ;argumentation

Résumé :

L'illustration dans le prêche de vendredi, de la fonction religieuse à la dimension argumentative« Etude d'exemples des prêches de vendredi – Mosquée de Salman Al Farissi, commune de Mahdia- Wilaya de Tiaret-

Le prêche de la mosquée en général et celui de vendredi en particulier joue un rôle efficace dans l'éducation de la société et la correction des comportements des individus, et cela à travers un certain nombre d'éléments stratégiques dont se sert le prédicateur (l'imam) et qui ont un objectif persuasif par le biais de diverses illustrations qui à leur tour ont une fonction d'argumentation sans que cela sorte du cercle religieux.

Mots clés : Le prêche ; prêche de vendredi ; la persuasion ; l'autorité de l'illustration; l'argumentation.

مقدمة:

يؤدي المسجد وظيفة بالغة الأهمية داخل المجتمع الإسلامي، فقد كان ومايزال قلعة الإسلام الأولى، وما زالت منابر صدّاحة بتعاليمه السمحة وبقيمه الفاضلة، وما زال أئمنه وخطبائه هم فرسان العربية ورواد البيان، ويتجسد ذلك من خلال خطبهم ودروسهم التي يلقونها في مختلف المناسبات السنوية كخطبتي العيدين أو الأسبوعية كخطب الجمعة أو اليومية كالدروس التي تنظم في بعض المساجد بعد صلاة الفجر أو بين صلاتي العصر والمغرب أو غيرها، ضف إلى ذلك ما يمكن أن ينظم داخل المساجد من ندوات أو محاضرات، وتعتبر تلك الخطابات الفصيحة - كالخطب- منها أو المتفصحة -كالدروس- خطابات غرضها التأثير في المتلقين وتوجيه سلوكهم

بالموعظة الحسنة والقول البليغ، وهي بذلك تؤدي وظيفة تواصلية ذات بعد حجاجي، ولما كانت تلك الخطابات ذات صبغة خاصة كانوا بحاجة ملحة إلى دعمها بالشواهد القوية والحجج الدامغة التي تؤدي إلى التسليم بلا إكراه ولا تعنيف، ولذلك حاولنا في هذا الموضوع دراسة قضية الاستشهاد في خطب الجمعة، وازدواجية الغرض فيها بين الديني والحجاجي.

الخطاب المسجدي:

الخطاب من المصطلحات المعاصرة التي عرفت تحولات عميقة في دلالاتها بين ما جاء في التراث العربي القديم وبين ما وفدت به الدراسات الحديثة، فاللفظ عربي أصيل ورد في الاستخدام العربي، وبه جاء القرآن الكريم في العديد من المواضع وبمختلف الصيغ، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّتِي فِي الْخُطَابِ﴾ [ص: 23]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ [ص: 20]، والخطاب حسب ما جاء في لسان العرب "مراجعة الكلام"¹، ومن اشتقاقات اللفظ التي كانت شائعة ومتداولة في التراث خاصة عند علماء النحو والبلاغة لفظتي المخاطب والمخاطب كونهما الطرفين القائمين بفعل التخاطب، وذلك في حدود الجملة كأكبر وحدة لغوية درست في التراث العربي باتفاق عدد غير قليل من الباحثين.

وورد في التراث مصطلح الخطاب مقابلاً للكلام يقول الجويني: "الكلام والخطاب والتكلم والتخاطب والنطق واحد في حقيقة اللغة، وهو ما يصير به الحي متكلماً"²، فمجموعة الألفاظ التي ذكرها (الكلام-الخطاب-التكلم-التخاطب-النطق) تشترك في الدلالة على معنى واحد هو "ما يصير به الحي متكلماً"، وعند الآمدي الخطاب: "اللفظ المتواضع عليه المقصود به إلهام من هو متبرئ لفهمه"³، فإن كان الجويني قد ركز على جانب واحد هو منشئ الخطاب، فإن الآمدي ركز على أطراف التواصل اللغوي، فطبيعة الخطاب أنه لغوي (اللفظ) له مرسل غاية الإلهام، وله مستقبل صفته التهيؤ لتلقي الخطاب، وسنن متفق عليه (التواضع) وتوفر القصد، وفي ذلك إشارات بليغة ودقيقة إلى إدراك خصوصية اللفظ (الخطاب).

وفي العصر الحديث استخدم الدارسون العرب مصطلح الخطاب مقابلاً للكلمة الأجنبية discourse (الإنجليزية) أو discours (الفرنسية) وهو من المصطلحات التي يستعصى ضبطها أو وضع حد جامع مانع لها، ويعد ميشال فوكو من الذين أيقنوا وأقروا بتلك الصعوبة، ومن بين ما استخدم له أنه يأتي "للدلالة على مجموع الإنجازات اللفظية، وكنا نفهم عندئذ من لفظ خطاب ما تم إنتاجه (أو كل ما تم إنتاجه عند الاقتضاء) بواسطة الأدلة"⁴، وإن كان فوكو قد تطرق لمفهوم الخطاب في بعده الفلسفي لا بعده اللساني.

ويمكن أن نتطرق لتوصيف الخطاب لا تعريفه وهو ما ذهب إليه عبد الهادي بن ظافر الشهري وأنه أخذ في العصر الحديث بعدين:

"الأول: أنه ذلك الملفوظ الموجه إلى الغير بإفهامه قصدا معينا.
الآخر: الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة"⁵

البعد الأول هو ما اتفق فيه العرب القدامى مع الدراسات الحديثة، أما البعد الثاني فهو المنحى الجديد الذي أخذه مفهوم الخطاب، وهو الذي أخذه الدارسون العرب عن الغرب، كون الدراسات العربية لم تتجاوز الجملة كوحدة كبرى للتحليل.

وتجنبنا للإطالة نحذ عدم الإسهاب في تلك الاختلافات حول مفهوم الخطاب وحدوده وعلاقاته بالمفاهيم المحيطة خاصة مفهوم النص باعتباره أقرب مفهوم له والأكثر تقاطعا معه، لنمر إلى التركيب الوصفي "الخطاب المسجدي".

من الأمور اللافتة للانتباه أن الدراسات النصية وكل ما له صلة بتحليل الخطاب في العصر الحديث عملت على تصنيف الخطابات إما بحسب خصائصها أو موضوعاتها أو المؤسسة المنتجة لها، -فأصبحنا نسمع مثلا الخطاب العلمي والخطاب الديني والخطاب الرأسمالي والخطاب الرادكالي...- وضمن هذا الأخير يمكن أن ندرج هذا التوصيف "الخطاب المسجدي" فهذه التسمية نسبة إلى المؤسسة المنتجة له، ولا يمكن أن نصفه إلا بهذه الصفة، فلا يمكن أن يوصف الخطاب المسجدي وحده بالخطاب الديني لأن الخطاب الديني أكثر عمومية، فالمسجد مؤسسة دينية وظيفتها تنظيم حياة الأفراد على جميع المستويات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية أو على الأقل هكذا ينبغي أن تكون وظيفته، فالخطاب المسجدي هو الخطاب الذي ينتجه المسجد باعتباره مؤسسة دينية غرضها الأول تنظيم حياة المسلمين وفق مقتضيات الشريعة الإسلامية ودعوتهم إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة.

خطبة الجمعة: من أنماط الخطابات المسجدية خطبة الجمعة أو خطبتا الجمعة، والخطبة فن أدبي من أعرق الفنون الأدبية الإنسانية عامة والعربية خاصة، ودليل ذلك أن أرسطو خصص لها كتابا سماه الخطابة وعرفها على أنها -الريطوريا- "قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"⁶، وقد ازدهرت عند العرب في الجاهلية والإسلام، وهي "خطاب من فصيح نابه الشأن يلقيه على جماعة في أمر ذي بال"⁷، ويظهر اهتمام العرب بالخطابة عن طريق اهتمامهم بالخطيب واتخاذهم له مواصفات فلا يمكن للرجل أن يأخذ صفة الخطيب إن لم تتوفر فيه، حتى أنه يمكن اعتبارها الفن الوحيد الذي نافس الشعر في الريادة وذلك لأنها "أقدر على شرح الحقائق ومناقشة المسائل، فهي طريق الإقناع بالحجج العقلية، والبراهين المنطقية، والمؤثرات الوجدانية مما لا يتسع الشعر لمثله"⁸ فزاد الاهتمام بها في مختلف عصور الدولة الإسلامية لكونها وسيلة ذات فعالية قصوى من أجل تحقيق الغاية التأثيرية والإقناعية لجمهور المتلقين.

وإن عدنا إلى خطبة الجمعة فهي الخطبة التي تلقى على المنبر يوم الجمعة قبل الصلاة، واستدل العلماء على وجوبها لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة، 09]، فوجوب السعي إليهما دليل وجوبها⁹، واشترطوا لها شروطاً لا تقوم إلا بها.

وتعد خطبة الجمعة من أصعب الخطب العاملة على التأثير إعداداً وصياغة وإلقاءً نظراً لطبيعة جمهور المتلقين، الذي يتنوع بتنوع أصناف المجتمع وفئاته وطبقاته الاجتماعية والعمرية والمعرفية، فعلى الخطيب أن يراعي أحوال المخاطبين وينوع أساليبه بقدر تنوع المتلقين، وإن كان هذا من شروط بلاغة الخطيب، إلا أنه له علاقة بالبعد الحجاجي للخطابة، يرى بيرلمان أنه على الخطيب "إذا أراد أن يكون خطابه منسجماً مع مستوى مخاطبيه أن يفهم أولاً المقام المتكلم فيه ثم أحوال السامعين ومستوياتهم المعرفية والإدراكية، لأن بناء الحجاج مرتبط أساساً بتنوع المعنيين به، فهم المقصودون بفحواه، المطالبون بإنجاز محمولاته، المشاركون في صياغته وإخراجه"¹⁰، وذلك حتى تؤدي الخطابة الدور الحقيقي الذي صيغت وألقيت من أجله وهو استمالة الجمهور والتأثير في سلوكياتهم.

ويمكن لخطيب الجمعة أن يستفيد في تنوع أساليبه من تنوع أساليب القرآن الكريم، وقد جاءت ثرية بين ترغيب وترهيب، وتبشير وإنذار ومخاطبة للعقل أحياناً وللعاطفة أخرى، وقد حدد القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، وهذا بحسب أصناف الناس فمن "الناس أصحاب نفوس مشرقة قوية الاستعداد لإدراك المعاني والاستجابة لها، شديدة الانجذاب نحو المبادئ واتباع الحق وهؤلاء يدعون بالحكمة، [...] ومن الناس طائفة شديدة الألف بالمحسّات تدور حياتهم في إطار ما توارثوه من عادات، وما نشأوا فيه من تقاليد [...] ومن الناس طائفة من أصحاب اللدد والخصومة والجدال والمعادنة تشكك في كل خبر وتثير الشبهات وتلبس على الناس"¹¹ ولكل فئة من هؤلاء الناس طريقة بها يستمال قلبه وتستثار عاطفته، فالأولى بالحكمة والثانية بالموعظة الحسنة والثالثة بالمجادلة بالتي هي أحسن.

والخطابة في كل ذلك تسعى إلى توجيه سلوك جماعة المسلمين وإرشادهم إلى التوحيد الحق والأخلاق الفاضلة والتراحم والتواصل بينهم، وخدمة المجتمعات التي ينتمون إليها، وقيم التسامح والمواطنة وغيرها في ظل تعاليم الدين الإسلامي.

وحتى يكون لخطبة الجمعة أثر في نفوس السامعين فإنها ترصّع بآيات من الذكر الحكيم وتوشح بأحاديث من كلام النبي الكريم، وتزين بأشعار العرب وحكمهم، يرى ابن وهب أنه من أوصاف الخطبة "أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتمجيد، وتوشح بالقرآن وبالسائر من الأمثال، فإن ذلك مما يزين الخطب عند مستمعيها وتعظم به الفائدة فيها، ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا يذكر الله في أولها البتراء، وكل خطبة لا توشح

بالقرآن والأمثال الشوهاء"¹²، فالفائدة التي تعظم ليست إلا الأثر البالغ في النفوس والقدرة الرهيبة على تغيير السلوك.

وهذه كلها تعتبر استشهادات تساهم في تفعيل العملية الإقناعية والتأثيرية بين الخطيب وجمهور المتلقين، وهي عبارة عن شواهد أو حجج جاهزة والتي تعد "من دعائم الحجاج القوية، إذ يضعها المخاطب في الموضع المناسب، وهنا تتبدى أهليته وبراعته في توظيفها بحسب ما يتطلبه السياق، ويمكن تصنيفها في السلم الحجاجي بالنظر إلى طبيعتها المصدرية، فهي ليست من إنتاج المخاطب بقدر ما هي منقولة على لسانه، ونقلها على لسانه ينبئ عن كفاءته التداولية"¹³ فكما يتوجب عليه حسن انتقائها يتوجب عليه حسن توظيفها في مواضعها المناسبة، وكذلك ترتيبها بقدر أهميتها وملاءمتها للموضوع.

الاستشهاد في خطب الجمعة: نظرا لخصوصية الخطابة المسجدية عامة وخطب الجمعة خاصة أولاهها علماء الشريعة عناية خاصة فخصصوا لها مباحث كاملة في مصنفاتهم الفقهية، ودليل ذلك أنهم حرموا الكلام أثناء إلقاء الإمام لها مستندين إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا قلت لصاحبك أنصت» يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت»¹⁴، وذلك ليكون المجال مجال تبليغ ووعظ وإرشاد.

ولتبين الوظيفة الحجاجية للاستشهاد في خطب الجمعة ننتقل إلى للدراسة التطبيقية وقد اخترنا الاشتغال على مجموعة من الخطب التي ألقيت بمسجد سلمان الفارسي بدائرة مهدية ولاية تيارت، والتي كانت مواضيعها متنوعة بعضها فيه إرشاد إلى مكارم الأخلاق وبعضها إحياء وتذكير ببعض المناسبات كعيد المرأة وعيد النصر وربطها بواقع المسلمين.

الشاهد القرآني: نظرا لطبيعة خطب الجمعة فمن البديهي أن يكون الشاهد القرآني قد احتل مكان الصدارة في شواهدنا، بل إن بعض الفقهاء جعله شرطا لصحتها، فقد جاء في شرح زاد المستقنع "الشرط الثالث لصحة الخطبة، وهو قراءة آية فأكثر من كتاب الله، فإن لم يقرأ آية لم تصح الخطبة، ولكن يشترط في الآية أن تستقل بمعنى فإن لم تستقل بمعنى لم تجزئ"¹⁵، وإن كان البعض لم يشترط ذلك إلا أن اشتراطهم المعنى المستقل دليل على توظيفها من أجل الاستدلال في التوجيه والوعظ.

ومن مواضع توظيفه في الخطب نجد الإمام يستشهد بآيات قرآنية كثيرة يستدل بها على مكانة المرأة في الإسلام، وذلك في الخطبة التي ألقاها بمناسبة اليوم العالمي للمرأة، ومن تلك الشواهد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَكَ الْبَنَاتِ سَبْحَانَ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ* وَإِذَا بَشَرٌ أَحَدَهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: 57-59]

استخدم هذه الآية للاستشهاد على تكريم الإسلام للمرأة وسعيه لإصلاح المنظومة الاجتماعية التي سادها الفساد وهي منظومة المجتمع الجاهلي، يقول الإمام: "فهذا الدين الذي أكرمنا الله به جاء لإكرام المرأة والرجل على حد سواء، ولحماية المرأة خصوصاً من غوائل الجاهلية والعادات المقيتة حيث كان أهل الجاهلية في غالبيتهم ينظرون إلى المرأة نظرة احتقار وازدراء بل وصل بهم الأمر إلى وأد البنات للتخلص منهن فجاء الإسلام العظيم ليمحو هذه النظرة الفاسدة ويقضي على تلك العادات السيئة"¹⁶، ففي النص تبين لدور الإسلام في حماية المرأة والرفع من مكانتها، ودحض لكل فكرة توهم أو تلمح إلى ازدراء الإسلام لها، ولذلك استشهد بالآية مستدلاً على وجوب التخلص من عادات الجاهلية، فكل إكرام للمرأة في المجتمع ينبئ عن اتباع لتعاليم الإسلام، وكل ظلم لها أو هضم لحقوقها ينبئ عن عودة إلى مساوئ الجاهلية ومظالمها.

كما استدل في الموضوع نفسه بقوله تعالى: ﴿وعاشروهم بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ [النساء: 19] وذلك في الحث على عدم ظلم المرأة ومعاشرتها بالمعروف حتى مع كرهها، يقول الإمام: "عباد الله، ومن مظاهر تكريم الإسلام للمرأة بكونها زوجة أن الله أمر الرجل بحسن عشرتها فقال: ﴿وعاشروهم بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾"¹⁷ وفي ذلك قمة التعامل الإنساني الرحيم، فكره الرجل زوجته لا يخول له ظلمها أو الإساءة إليها بل الإحسان إليها واجب، ومعاشرتها بالمعروف فرض.

ومن خطبة أخرى بمناسبة عيد النصر يقول الإمام: "والنصر والتفوق والنجاح لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ [آل عمران: 126] فأني نجاح وأي تفوق وأي فوز إنما يكون بتيسير من الله جلّ وعلا، فمن نصره الله فلا غالب له ومن خذله فلا ناصر له يقول الله تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [آل عمران: 160] أيها المؤمنون وللنصر والنجاح أسباب لا بد من الأخذ بها ومن أعظمها الاستقامة على طاعة الله لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [محمد: 07]"¹⁸، في هذا المقطع نجد الخطيب استشهد بمجموعة من الآيات للاستدلال على مجموعة من الأحكام المتعلقة بالنصر، والنصر ليس مرتبطاً بالحرب أو دواعيها، وإنما هو من ضروريات حياة كل إنسان، وله شروط وأحكام كما هي متعلقة بنجاح الأمم وانتصاراتها، هي متعلقة بنجاح الأفراد وتفوقهم، وتلك الأحكام رتبها الخطيب كما سنبين فيما يأتي:

1- النصر من عند الله

2- من نصره الله لا غالب به - ومن خذله لا ناصر له

3-وكما أن الاستقامة والطاعة من ضروريات النصر، المعصية والضلال مدعاة الخسارة والخيبة.

وهذا نجد الخطيب سارفي سلم حجاجي بناه من الأعم إلى الأخص، أعلاه مبني على الإيمان واليقين وصولاً إلى اتخاذ الأسباب المعنوية كالاستقامة والمادية كاتخاذ العدة، وعلى هذا النهج سار الصحابة والفتاحون والمجاهدون وكل من حمل راية الحق ودافع عنها، أو حمل راية البناء في السلم وعمل على النهوض بوطنه وأمته.

وإن انتقلنا إلى نوع آخر من المواضيع الخارجة عن المناسبات كمواضيع الإرشاد والوعظ والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، ففي دعوة الخطيب إلى فعل الخير وصنع المعروف يقول: "أيها المسلمون: اتقوا الله واعلموا أنكم إليه راجعون وعلى الحسنات مجزيون وبالسّيئات مؤاخذون وعليها محاسبون ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [البقرة:281]"¹⁹، يدعو الخطيب إلى تقوى الله عزّ وجلّ لأنها هي رأس الأمر كله وبها يقام الدين، وهي المحور الذي تدور حوله الشريعة، وعليه تبنى الخطبة، فما من خطبة إلا ويوصي فيها الخطيب بتقوى الله سواء في بدايتها أو نهايتها، وقد جعلها الخطيب هنا رأس المعروف وركيزته، فرتب وصيته كالآتي:

1- اتقوا الله.

2-اعلموا أنكم إليه راجعون.

3-على الحسنات مجزيون.

4-بالسّيئات مؤاخذون وعليها محاسبون.

وبناء عليها استشهد بالآية ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [البقرة: 281]، فإن كان مآل الأمر رجعة إلى الله عزّ وجلّ ثم ثواب على الإحسان، وعقاب على الإساءة، فلا بد على المؤمن أن يسلك سبيل الخير ويتقي سبيل الشر حتى لا يتعس في الدنيا ويهلك في الآخرة، فتقوى الله ليست شعاراً يرفع وإنما أعمال تصدق بها الجوارح ما وقر في القلب، ولذلك دعم دعوته لفعل الخير بحجة جاهزة تمثلت في الآية الكريمة.

الحديث النبوي: يأخذ الحديث النبوي المرتبة الثانية في الاحتجاج لتعاليم الشريعة الإسلامية السمحاء، ومن أنواع الحديث الحديث القدسي الذي يكون في مرتبة بين القرآن الكريم والحديث الشريف، ومن مواضع الاستشهاد بالحديث القدسي قول الخطيب: "أيها المؤمنون إن من أعظم الفضائل وأعلى المقامات أن ينال المسلم محبة الله ففي الحديث القدسي يقول الله تبارك وتعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصره ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني ل أعطيته ولئن استعاذ بي

لأعيزنه»[صحيح البخاري:6502] فهذا الحديث يدل على أن الأعمال الصالحة التي يعملها العبد بصدق وإخلاص من أعظم أسباب نيل محبة الله، لهذا كان من أدل الدلائل على محبة الله لعبده أن يسهل عليه العبادة ويفتح له أبواب الطاعة ويجعله مفتاحا لكل خير مغلاقا لكل شر²⁰، ففي دعوة الخطيب إلى فعل الخير يتخذ سبيل التحفيز عن طريق استمالة القلوب إلى تحصيل مرضاة الله عز وجل ونيل محبته عن طريق صنع المعروف

صنائع المعروف ===== دليل محبة الله لعبده ===== الحجة: الحديث القدسي المستدل به.

فالحث هنا ليس على فعل الفرائض وإنما على فعل الخيرات والإقبال على المعروف لذلك استدل الخطيب بهذا الحديث.

ومن أهم أنواع الحجاج الحجاج بالقدوة، والذي يعتبر نمطا من أنماط الشاهد، فهو "السلوك الذي نقدم لأجل محاكاته، يمثل حجة بلاغية قوية، إذ أننا لا نسعى هنا إلى مجرد تعديل الأفكار ولكننا نسعى إلى تعديل السلوك. وهذا التغيير للسلوك هو الغاية القصوى التي تسعى إليها أية حجة. بل إننا نستطيع الزعم أن الحجة إذا اقتصرنا على مجرد تغيير الأفكار دون السلوك تكون حجة قاصرة عن الهدف والمرمى"²¹، فالحجاج بالقول يأخذ الفعالية التي يمكن أن يأخذها الحجاج بالسلوك أو القدوة.

ولذلك يتخذ الرسول عليه الصلاة والسلام المثال المحتذى والقدوة التي يجب أن تتبع، يقول الخطيب "والنبي صلى الله عليه وسلم هو قدوتنا في ذلك كله ففي غزوة بدر لما احتدم القتال وحمي الوطيس وبلغت المعركة قممها أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يرفع يديه ويمدهما إلى السماء ويدعور به ويستغيثه ويستنصره ويقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، وبالغ في الابتغال حتى سقط رداؤه عن منكبيه فرده عليه أبو بكر الصديق وقال حسبك يا رسول الله ألححت على ربك"²²، فإن كانت الخطبة دعوة لاتخاذ الأسباب من أجل النصر والتمكين، إلا أن الخطيب يسعى إلى أن يبين لجمهور المصلين أن اتخاذ الأسباب المادية وحده غير كاف للمسلمين بل لابد من الاستعانة بالله عز وجل والتضرع إليه بالدعاء في أمور الدنيا والآخرة، والقدوة في ذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبالرغم من أن الله وعده بالنصر إلى أنه ألح في الدعاء إلحاح العبد الضعيف الفقير، ووعدته بالجنة إلا أنه كان يعبد الله عز وجل حتى تتورم قدماء ويدعوه دعاء العبد الشاكر، فكيف بمن كان دونه أن يركن إلى عمله أو إلى ما اتخذه من أسباب مادية.

وفي خطبة أخرى جعل الخطيب مدار حديثه حول حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول الخطيب: "أيها المسلمون اتقوا الله، واعلموا أن من أعظم العبادات وأجل القربات تفريج

الكربات والتيسير على المعسرين وقضاء الدين عن المدينين، وتقديم يد العون للمستضعفين، وكل من الأعمال الصالحة التي أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم أمته في هذا الحديث العظيم الجليل الذي بين أيدينا اليوم في هذا المقام والذي رواه بسنده أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما جلس قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه» [رواه مسلم]²³، يعمل الخطيب على حث المصلين على فعل الخير فجعل الخطبة قائمة على شرح هذا الحديث الذي يمثل حجة قوية وشاهداً يتمتع بسلطة قوية استمدها من قائله أولاً -رسول الله (صلى الله عليه وسلم)- ومن سنده الصحيح ثانياً برواية الإمام مسلم، فيمكن أن يكون دستوراً لحياة اجتماعية يسودها التواد والتكافل والتراحم، والتواضع والسعي الحثيث لتحصيل العلم وغيرها من القيم التي يدعو إليها والتي لا تحتاج إلى أدلة من أجل إثبات نجاعتها أو مصداقيتها فالحديث حجة قائمة بذاتها.

الشعر العربي: وإن كان الشعر من الحجج التي يستشهد بها الخطيب في خطبه إلا أن الاستشهاد بالشعر في خطب الجمعة من المسائل التي وقع حولها خلاف بين الفقهاء، فذهب البعض إلى وجوب الابتعاد عن الإكثار من الاستشهاد بالشعر والأحرى بالخطيب أن يعتمد في تذكير الناس على الكتاب والسنة، ولكن البعض قد أجاز ذلك بشروط، فالشعر "إذا كان فيه طاعة وذكر لله عز وجل فهو حكمة، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (إن من الشعر لحكمة) فالشعر الذي يكون مشتملاً على الأمر بالخير والنهي عن الشر فإنه لا بأس به، ولا حرج في ذلك؛ لأن الخطبة مدارها على الحكمة، والدين كله مداره على الحكمة، فإذا اشتملت الأبيات من الشعر على موعظة، وكان لها أثر في النفوس، وكانت عظيمة الوقع في القلوب فلا بأس، وقد ذكر بعض العلماء والأئمة أن الخطيب قد يحتاج إلى ذلك من باب التنويع، فإنه ربما وعظ الناس بأسلوب فملّوه، فيأتيهم بأسلوب آخر حتى يذكروهم بالله عز وجل بالطريقة التي تؤثر في نفوسهم"²⁴ فالغاية هي استقصاء الوسائل التي تزيد من الفاعلية التأثيرية للخطبة ولا أحد يمكن أن ينكر أن أشعار العربية لها وقع في النفوس، ولكن مع ذلك نقرأ أن سلطتها الحجاجية تأتي في مرتبة أدنى من مرتبة القرآن الكريم والحديث الشريف.

ومن استشهاد الخطيب بالشعر قوله -في خطبة عن أسباب انشراح الصدر- "عباد الله: ومما يورث انشراح الصدر أن يعيش الإنسان يومه فينبغي أن لا يشغل فكره بمآسي الماضي ومصائبه وأن يصرف كل همه لما يكون في المستقبل، بل يجب أن يصرف همه ونشاطه ليومه وهذا لا يعني

أن لا يخطط الإنسان لمستقبله لكن لا يجعله هاجس المستقبل يسيطر على عقله وفكره [...] وقد صدق الإمام الشافعي:

سَهَرْتُ أَعْيُنْ، وَنَامَتْ عُيُونُ *** في أمورٍ تكونُ أو لا تكونُ.
فادراً الهم ما استطعت عن النف *** س فحملانك الهموم جنونُ
إن ربا كفاك بالأمس ما كان *** سَيَكْفِيكَ في غَدٍ مَا يَكُونُ²⁵

كان الخطيب يحدث جمهوره عن انشراح الصدر وأهم أسبابه وذكر لهم في هذا الموضع أن من أهم تلك الأسباب عدم الحزن على ما فات أو الهم مما هو آت، واستشهد لذلك بأبيات الإمام الشافعي، فإن كانت النتيجة التي يرغب الخطيب في الوصول إليها هي جعل المتلقين يعيشون في حالة من الاطمئنان والاستقرار النفسي (انشراح الصدر) بين لهم أحد الأسباب هو أن يعيشوا يومهم ويسعدوا بما فيه، وحجته الجاهزة في ذلك أبيات الشافعي المذكورة.

ومن المواضع التي استخدم فيها الخطيب الشاهد الشعري في موضع حثه على الاهتمام بالمرأة وتنشئتها على مبادئ الإسلام ومكارم الأخلاق لأنها هي التي ترعى شؤون الناشئة وتعمل على تعهدهم وتربيتهم، يقول الخطيب: "لكن الإسلام أراد من هذه الزوجة أن تكون أما صالحة قدوة لأولادها في كل خير وفضيلة، تقدم للمجتمع ذرية صالحة نافعة وقد صدق القائل حين قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها *** أعددت شعبا طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا *** بالريّ أورك أيما إبراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى *** شغلت مآثرهم مدى الآفاق²⁶

يحث الخطيب على وجوب الاهتمام بالمرأة وتربيتها تربية صالحة لأنها إن كانت صالحة أنشأت جيلا صالحا، وإن نشأت على الفساد لم تجد ما تربى به أبناءها فهي المدرسة التي يتخرج منها جموع أفراد المجتمع نساء ورجالا، ففي هذا دعوة إلى وجوب الاهتمام بالمرأة عامة والأم خاصة لأن الاهتمام بالمرأة اهتمام بالمجتمع، والحجة الجاهزة التي قدمها الخطيب هي أبيات حافظ إبراهيم.

القصة: لا يمكن لخطيب الجمعة أن يتخذ شاهدا أسطوريا أو خياليا وذلك لطبيعة الخطبة وارتباطها بالجانب التعبدية من حياة المسلمين، ولكنه مع ذلك له أن يتخذ من قصص القرآن أو أحداث السيرة أو جوانب من حياة بعض أعلام السلف قديما أو حديثا شواهد يستدل بها من أجل تحفيز الجمهور وإثارة عواطفهم والتأثير في سلوكهم، وهذا ما يسمى الحجاج بالقصة، والقصة من الوسائل التي استخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبه، وذلك إدراكا منه عليه الصلاة والسلام لأثرها "في النفوس، فاحتذاها في بيانه الكريم، باعتبارها أسلوبا من أهم أساليب الدعوة وأجاد استعمالها بما أبدع في قصصه من وسائل وصور بيانية للمعاني من أجل

وضوح الفكرة وإبرازها في صورة رائعة مؤثرة كشفت لحقائق الدين، وتصويرا لمكونات النفس، وتحليلا للدوافع النفسية²⁷ وذلك لما لها من أثر في تنشيط الانتباه وتشويق المتلقي.

ومن القصص التي وظفها الخطيب "... ففعل الخير من أعظم أسباب الوقاية من المصائب والكوارث التي قد تصيب الإنسان في نفسه وماله وولده، ولنا في قصص الأنبياء والمرسلين أخبار السابقين عبر وعظات من ذلك قصة سيدنا يونس عليه السلام وكيف أنجاه الله تعالى من الغم بسبب طاعته لربه وبذله المعروف للناس، فيوم أن ضاق بإعراض قومه عن دعوته، وهجرهم ورحل عنهم بعيدا غاضبا عليهم، ظاننا أن الله أباح له أن يهجرهم، فظن أن الله لن يقدر عليه فابتلعه الحوت وعاش في الظلمات ظلمات الليل وظلمات البحر، وظلمات بطن الحوت فأصبح في شدة وفي محنة، [...] فلما نزل به البلاء وصار في بطن الحوت دعا ربه فسمعت الملائكة دعاءه فقالت صوت معروف في أرض غريبة، فاستجاب الله دعاءه وأخرجه من تلك الظلمات، وأنجاه من الموت المحقق، وذلك بسبب ما تقدم من يونس من أعمال صالحة ومنها فعل الخير والتسبيح وغير ذلك²⁸، انطلق الخطيب من مقدمة مفادها أن فعل الخير ونفع الغير بجلب مصلحة أو درء مفسدة أو تقديم علم أو غيرها له ثمار جمة على حياة الفرد ونماء المجتمع، وقدم حجة جاهزة لذلك وهي قصة نبي الله يونس عليه السلام الذي حفظته يد الرعاية الإلهية بما قدمه من معروف وذكر ودعاء في سالف أيامه، وفي ذلك دعوة وحث للناس على صنع المعروف في سائر الأيام عسى أن يدفع بها عنهم سوءا في يوم شدة ويقمهم بها من مصارع سوء.

خاتمة:

وفي الختام يمكن أن نخلص إلى القول إن الخطابة المسجدية استمرار لفن الخطابة العربية العريق، الذي أولاه الخطباء والساسة وأهل البلاغة والأدب عناية فائقة، وإن هذا الفن يحمل بعدا حجاجيا فائقا، بل إنه مجال الحجاج الأوسع والأرحب، ففيه يعمل الخطيب على التأثير في جمهور المتلقين وتوجيههم وإرشادهم إلى تعاليم الدين وفضائل الأخلاق ومكارم السلوكات، وللخطابة المسجدية عامة وخطبة الجمعة خاصة أهمية قصوى في حياة المسلمين لذلك حرصوا على ضبط فقها وإحصاء شروطها، لأنها خطبة تقوم بها عبادة الصلاة وما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب، ومن أوجه ذلك الاهتمام ضبطهم شروط الاستشهاد فيها ونصوص الاحتجاج، ولذلك وجدنا أن الشاهد في خطب الجمعة يؤدي وظيفتين: وظيفة دينية محضة تنحصر في أوجه التشريع وضبط ما يجوز وما لا يجوز، ووظيفة حجاجية تظهر في غاية الخطيب الإقناعية ورغبته في إرشاد جمهور المصلين وتوجيه سلوكاتهم وفق ما تقتضيه الشريعة.

هوامش البحث:

- 1- ابن منظور، لسان العرب، مادة: خ. ط. ب.
- 2- الجويني، الكافية في الجدل، تح: فوقية حسين محمود، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1399هـ، ص: 32.
- 3- الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تح: سيد الجميلي، ج: 01، دارالكتاب العربي، بيروت، ط: 01، 1986، ص: 136.
- 4- حفريات المعرفة. ميشال فوكو. تر: شكري المبخوت، ط: 2. م. ث. ع. الدار البيضاء. 1987. ص: 100.
- 5- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط: 01، 2004، ص: 37.
- 6- أرسطو طاليس، الخطابة – الترجمة العربية القديمة-، تح: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، ص: 09.
- 7- أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، ج: 02، دار الفكر بيروت، 2005، ص: 246.
- 8- محمد الطاهر درويش، الخطابة في صدر الإسلام، ج: 01، دار المعارف، القاهرة، 1965، ص: 112.
- 9- ينظر: محمد بن صالح العثيمين، الشرح الممتع على زاد المستقنع، ج: 05، دار ابن الجوزي، ص: 51.
- 10- عن: محمد السالم الطلبة، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، الحجاج مفهومه ومجالاته، ج: 02، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010، ص: 185.
- 11- عبد الغني محمد سعيد بركة، أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا، مكتبة وهبة، ط: 01، 1983، ص: 109، 110.
- 12- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: حنفي محمد شرف، مكتبة الرسالة، ص: 153.
- 13- عبد الهادي بن ظافر الشهري، آليات الحجاج وأدواته، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج: 01، ص: 128.
- 14- أخرجه البخاري عن أبي هريرة برقم 934.
- 15- ابن عثيمين، شرح زاد المستقنع، ج: 05، ص: 54.
- 16- بوبكر جيلالي، خطبة تكريم الإسلام للمرأة، 10-03-2017- مسجد سلمان الفارسي، مهدية، تيارت.
- 17- نفسه.
- 18- بوبكر جيلالي، خطبة عوامل النصر والتمكين بمناسبة عيد النصر، بتاريخ 17-03-2017، مسجد سلمان الفارسي، دائرة مهدية، تيارت.
- 19- بوبكر جيلالي، خطبة صنائع المعروف تقي مصارع السوء، بتاريخ: 07-04-2017.
- 20- بوبكر جيلالي، خطبة صنائع المعروف تقي مصارع السوء، بتاريخ: 07-04-2017.
- 21- رشيد أعرضي، عرض موجز للبلاغة والحجاج عند بيرلمان، مدونة إلكترونية، http://balagharachid.blogspot.com/2014/04/blog-post_4540.html
- 22- بوبكر جيلالي، عوامل النصر والتمكين بمناسبة عيد النصر، بتاريخ: 17-03-2017.
- 23- بوبكر جيلالي، وقفات مع حديث للنبي صلى الله عليه وسلم، بتاريخ: 24-03-2017.
- 24- محمد الشنقيطي، شرح زاد المستقنع مختصر المقنع، ص: 1540. (نسخة إلكترونية)
- 25- بوبكر جيلالي، خطبة أسباب انشراح الصدر، خطبة جمعة بتاريخ: 31-03-2017، مسجد سلمان الفارسي، والأبيات للإمام الشافعي من ديوانه، دار الهدى، ميلة، الجزائر، ص: 28.
- 26- بوبكر جيلالي، تكريم الإسلام للمرأة. الأبيات لحافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه: أحمد أمين، وآخران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص: 282.
- 27- عبد الجليل العشراوي، الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2012، ص: 109.
- 28- بوبكر جيلالي، صنائع المعروف تقي مصارع السوء، بتاريخ: 07-04-2017.